﴿ الباب التاسع عشر ﴾

(فى أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس)

وهذا الباب ينقسم فيه الصبر الى قسمين (أحدهما) بحسب قوة الداعى الى الفعل (الثانى) بسهولته على العبد ، فاذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق ، وان فقدا معاً ـ يعنى قوة الداعى وسهولته ـ سهل الصبر عنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر ، فمن لا داعى له الى قتل النفس والسرقة وشرب الخمر وأكل الحشيشة وأنواع الفواحش ، ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شئ وأسهله ، ومن اشتد داعيه الى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شئ عليه ، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشاب عن الفاحشة ، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات ، منزلتهم عند الله منزلة عظيمة عالية منيعة لا يصل اليها الا من صبر مثل صبرهم وكذلك من صبر على موت أولاده وأبويه وأقاربه وأصحابه ونحوهم ، وهو مع ذلك صابر محتسب يأمر أهله بالصبر ، وينهاهم عن لطم الخدود وشق الجيوب ، وعن كلام ما لا يجوز لهم شرعا ، فهذا له من الثواب الجزيل والأجر العظيم مالا يعلمه الا الله . فالعبد اذا ذاق لذة المعصية ثم تاب وصبر عنها كانت توبته توبة صادقة ، ولقد بلغنى عمن أعرفه أنه تاب عن الخمر وحلف بالطلاق لا يشربه ثم إنه خالع وشرب * ولقد رأيت جماعة منهم ممن حلف بالطلاق الثلاث لا يلعب بالشطرنج وتاب منه ، ومع ذلك يعلم أن أكثر العلماء قالوا بتحريمه وأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأنه يحصل عليه من الحلف الكاذبة والفحش ما هو معروف مشهور ، ومع ذلك منهم من خالع ولعب ، ومنهم من لعب ووقع عليه الطلاق الثلاث بعد التوبة والحلف . فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أو ماله أو عرضه ، صبر على المعاصى ، ومواظبته على ما أمره الله تعالى به صبر على

الطاعات ، فاذا فعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى جوابه أن يوفى أجره بغير حساب *
ولهذا روى الامام أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ . قال : «عجب ربك من شاب
ليست له صبوة » وفى الصحيح من حديث أبى هريرة ، أن النبى ﷺ . قال :
« سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، امام عادل ، وشاب نشأ فى
عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا
عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ،
ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله
خالياً ففاضت عيناه » ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم فى ظله لكمال
صبرهم ومشقته على نفوسهم ، فصبر الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من
رعيته ، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة
المسجد ، وصبر المتصدق على اخفاء الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء ،
وصبر المدعو الى الفاحشة مع جمال الداعى ، وصبر المتحابين فى الله فى اجتماعهما
وانفرادهما ، وصبر الباكى من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس ، فهذه الامور
فيها مشقة على النفوس ، فالصبر عليها بتوفيق الله وفضله واحسانه الى عبده صبر
جميل عظيم *

﴿ فصل ﴾

ولما كان الداعى فى حق بعض الناس ضعيف ولم يصبروا مع تمكنهم من الصبر ،
كان عقوبتهم عند الله تعالى أشد من عقوبة غيرهم ، كالشيخ الزانى ، والملك
الكذاب ، والفقير المحتال ، وانما كانوا أشد عقوبة من غيرهم لسهولة التصبر عن
هذه المحرمات عليهم ، ولضعف دواعيها فى حقهم . فكان تركهم الصبر عنها دليلا
على تمردهم على الله تعالى ، وعتوهم عليه ، ولهذا كان الصبر على معاصى اللسان
والفرج من أشق أنواع الصبر لشدة الداعى اليهما وسهولتهما ، فان معاصى اللسان

فاكهة الانسان لسرعة حركته وسهولة اطلاقه ، وثبت أن النبي ﷺ . قال : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ، فيجب لجامه بلجام الشرع ، ولهذا قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » فان اللسان رحب الميدان فى الخير والشر ، فمن أطلقه ولم يضبطه بالشرع سلك به الشيطان فى المهالك ، وكبه فى النار عندمالك . فالكمال إمساكه مطلقا عن فضول الكلام الا فى خير وما لا بد منه ، فان اللسان لا تؤمن غائلته وخطره عظيم . ولسهولة حركته وسرعة اطلاقه قد بلى أكثر الناس فى زماننا بآفاته التى هى فاكهتهم وسرور مجالسهم : كالغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال والخوض فى الباطل والخصومات وفضول الكلام والتحريف والزيادة والنقصان وتزكية النفس تفريحاً وتعريضا ، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه وتزكية من يحبه وهتك المستورات ونحو ذلك . فيتفق قوة الداعى وسرعة حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا . قال النبى ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك لسانك » . وقد تقدم الحديث . فاذا صارت هذه الآفات التى ذكرناها للسان عادة وسجية فانه يشق على العبد الصبر عنها الامن عصمه الله . فآفات اللسان مهلكة ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، نسأل الله السلامة منها. لهذا نجد كثيراً من المتفقهة وغيرهم ممن ينتسب الى الورع يتورع من استناده الى مخدة من الحرير ، أو من قعوده على بساط حرير ، أو من شربه من قدح زجاج مموه بالذهب (أو الجلوس) لحظة واحدة فى فرح وغيره مع ما فيه من الخلاف ولا يتورع من اطلاق لسانه فى الكبائر من الذنوب ، كالغيبة والنميمة والتغلة فى أعراض الخلق ، وكذا اذا وقع الكلام فى تفسير كلام الله ، أو فى مسند رسول الله ، أطلق لسانه فيهما بغير علم مع علمه بقوله تعالى : (ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ثم أيضاً ممن يتورع عن الحبة من

الحرام ، بل عن الفلس المحرم ، وعن القطرة من الخمر ، ويتحرز على مثل رأس الابرة من النجاسة ، ولا يبالى بارتكاب الفرج المحرم سواء كان صبيا أو امرأة . كما يحكى : ان رجلا خلا بامرأة أجنبية فلما أراد جماعها قال : ياهذه غطى وجهك فان النظر الى وجه الاجنبية حرام . والمقصود أن الصبر عن الاشياء التى اعتادها الانسان وورد الشرع بذمها من أشق الاشياء على النفوس الا من وفقه الله لذلك *

﴿ فصل ﴾

ومن علامة الصبر وعدم مشقته على النفس عند ورود المصائب ، وكف السكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود ، وحبس اللسان عن الاعتراض على المقادير ، والتسخط والامتناع من كل شئ يوجب اظهاره ، حتى ان السلف كرهوا الانين قالت الحكماء : العاقل يفعل أول يوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام . وقد قال عليه الصلاة والسلام للاشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا والا سلوت كما تسلوا البهائم »

﴿ الباب العشرون ﴾

(فى الرضاء بالمصيبة)

اعلم رحمك الله أن الرضاء بالمصائب أشق على النفوس من الصبر ، وقد تقدم أن الصبر من أشق الاشياء على النفوس ، وفى جامع الترمذى أن النبى ﷺ . قال : « اذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط » وقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الامام أحمد وغيرهم فى الرضاء بالقضاء هل هو واجب أو مستحب على قولين : فعلى الاول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين ، ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها ، فالرضاء أعلى من مقام الصبر ، لكن الصبر اتفقوا على